مـــــذكـــــرات رشـــــدي الـعـــــامـل:

حـكـــايـــات طـــائـــر الـفـــرات

هذه حكاية رشدي العامل تقدمها المدى فصولاً كتبها الشاعر الذي تالق وتألم كثيراً والصحفي الذي اعطى للفكر الانساني وللعراق دون منة، و(المدى) والتي تنفرد بنشر مذكرات رشدي تجدها وثيقة ثقافية تاريخية تكشف عن فصول من حياة شاعر كبير ضاجة بالصدق والبراءة والقدرة على الاكتشاف.

المدى الثقافي

-الحلقة الرابعة-

الحارس الليلي و.. معاون الشرطة

لما كان الحارس المسكين، من الاهالي الطيبين المساكين، الذين لا تفوتهم مناسبة "ذكر" دينية كل ليلة جمعة، في "تكية" محلتهم، فانه لم يستطع ان يفسر كيفية وجود منشور شيوعي، ضد الحكومة الرجعية العميلة، وعلى لوحة مبنى سراي الحكومة بالذات، الا انه من عمل الشيطان. وقد قيل لنا انه اقسم على هذا مراراً وباصرار امام سعادة معاون الشرطة، وانه لم ينكص عن هذا القسم ابداً.

ذاك المعاون المتبجح "المغرور" الذي وجد نفسه عرضة لسخرية القائممقام، كما كان أبي ينقل لي بحكم وظيفته وعلاقاته مع الموظفين الآخرين، ذلك المعاون وجد نفسه، في ورطة أخرى.

لقد حل في المدينة - القرية، "وباء" جديد لم يك في الحسبان.

المبعدون

فقد هبط مساء احد الأيام ثلاثة غرباء من سيارة اجرة، يحرسهم عدد من رجال الشرطة، ودلف الجميع الى سراي الحكومة، التي كانت تضم، اضافة الى دائرة القائممقام وموظفيه، مركزاً للشرطة، وغرفة للموقوفين، وبالطبع، فان انظار رواد المقهى المواجه لمبنى السراي تعلقت بهؤلاء القادمين الجدد الذين تحيط القيود (الكلبجات) بمعاصمهم، وهم يدخلون السراي بوجوه هادئة، وخطى متعبة.

بعد قليل، جاء احد أفراد الشرطة، يستدعي مختارنا، العم احمد العامل رحمه الله، الى السراي، لقد انتظرناه بقلق، وفضول، ونحن نحاول استشفاف الامر. وعندما عاد اخبرنا ببساطة، ان هؤلاء الرجال هم من الشيوعيين المنفيين، وانهم سيقضون فترة نفيهم في قريتنا، بعد ان انهوا احكام السجن في سجن ما، من السجن الكبير.. العراق.

في تلك الليلة، كانت امام مختارنا، مهمة ايجاد بيت مناسب لسكن الرجال المبعدين، الذين كان عليهم اثبات وجودهم في المدينة -المنفى، بالتوقيع يومياً، صباحاً ومساءً في دفتر خاص بدائرة الشرطة، كما ان جميع مراسلاتهم تخضع لمراقبة السلطة. لقد وجد معاون الشرطة، دائرة نفوذ جديدة!

وفي تلك الليلة أيضاً، كنا، حسين وانا، نفكر بالكيفية التي نستطيع بها ايجاد صلة بهؤلاء المبعدين السياسيين غير انني صدمت قليلاً بتساؤله:

"هل ينبغي لنا ايجاد صلة بهم؟" وفي تلك الليلة، قررنا تأجيل البت ريثما نتخذ قراراً قريباً، ثم نبحث عن طريقة للاتصال بهم، إذا أقر مثل هذا الاتصال ، ووفقاً لظروفهم الخاصة وظروفنا نحن ايضاً وبالدرجة الأولى.

هل اغفيت تلك الليلة؟ لا اتذكر بدقة، كيف امضيتها، انما كنت المح بين مغالبة النعاس الآسر، وبين اليقظة المتقطعة الواهنة جسراً حجرياً.. يمتد عبر الصحراء والفرات ليربط بين قريتي القصية، الهادئة الوادعة، وبين قلاع، لا اعرف الا اسمها في اماكن قصية أخرى من ارض الوطن: نقرة السلمان، سجن الكوت، سجون أخرى، وسراديب مظلمة للذين وقعوا في المصيدة. كان ذهني يعمل بدرجة عالية من التوتر العنيف، وخيالي يلتهب، ويقفز بعيداً، متلمساً دروباً مظلمة تعود بي مهما تناءت الى بلدتي البائسة المسكينة، الى قريتي المنفى.

آه، يا غابة النخيل القديمة، يا حقول الصمت والوداعة والانتظار والاحلام.. لقد ترقبنا ان تتحول ارضك وجزرك وبساتينك الى مرابع للانتجاع والاصطياف، وها هم يحولونك الى منفى!

في الأيام التالية، كان امامنا واجب جديد: ايجاد صلة ما بالمبعدين السياسيين.

كان الرجال الثلاثة، قد استقروا في اليوم التالي لوصولهم باحدى الدور البسيطة، في نفس الزقاق الضيق المفضي الى دار القائممقام. وكانوا يتخذون مكانهم، بعد طعام العشاء في ركن منعزل، من المقهى، الى جانب بضع نخيلات، منطوين على بعضهم ، يقرأون ما لسنا ندريه، ويتحدثون بهدوء، ويغادرون في ساعة متأخرة من الليل، الى مأواهم، بخطى هادئة.

لقد ساعدنا العم احمد، على ايجاد أول صلة بهم. فلما كان هو متعهد طعام الموقوفين في السراي، وبحكم كونه مختاراً لمحلتنا، حيث يسكن المبعدون، فقد كان من واجبه الاتصال بهم، ومعرفة احتياجاتهم، وهكذا فقد استطاع حسين، ان يتصل بهم، عندما ذهب الى دارهم نيابة عن أبيه لايصال شيء ما.

لقد عرفنا اسماءهم، وانهم امضوا سنوات سجنهم في نقرة السلمان، بعد ان وردت اسماؤهم في اعترافات مالك سيف، التي أفضت الى جريمة اعدام قادة الحزب الثلاثة، وطوحت بكوادر الحزب الى السجون.

وبعد أيام قليلة قررنا خلالها، ايجاد صلة دائمة، وثيقة معهم، بدأنا نلتقيهم، كلما احتجنا اليهم أو احتاجوا هم الى لقائنا.

في مقهى توفيق

المقهى المواجه لمبنى السراي، كان ملتقى رجال وشباب محلتنا، والمحلات المجاورة لها، غرباً وشرقاً.

مصابيحه الغازية تظل حتى بعد منتصف الليل، تبعث اضواءها للساحة المكشوفة امامه، وصوت المذياع لاينقطع ابداً، ليل نهار.

وفي تلك الليلة، كنا نتخذ مجلسنا، مع صاحب المقهى نثرثر طويلاً، حتى انصراف آخر زبون بعد منتصف الليل ولم يبق في المقهى سوى المنفيين الثلاثة، يسترخون على كراسيهم الخشبية الى جانب اشجار النخيل المجاورة.

وعندما اشار الينا صاحب المقهى الى اعتزامه اغلاق مقهاه، طلبنا اليه ان يتريث. كان قريباً لنا، شاباً طيباً تدير عائلته ذاك المقهى:

- لو انتظرت قليلاً توفيق.

سكت مبتسماً

- هل تصنع لنا شاياً جديداً..!

قال حسين:

- لنا.. وللجماعة.

اشار الى المبعدين. ضحك توفيق برضى، كان واحداً من المحلة اثيراً لدينا، تشدنا اليه اواصر القربى والصداقة والثقة.

انتقلنا اليهم وجلسنا في هدأة الليل، الليل عميق السكون، عميق البوح. لا صوت الا نشيج النواعير، عبر النهر ورائحة البساتين الندية.

نشيج حزين، متواصل يعانق خرير المياه وتدافعها، على الصخور الممتدة في الفرات الازلي، تحتجر دفق الماء، تحاوره ويحاورها. ثم تدفعه الى المجرى الضيق، ينساب منه قوياً، هادراً، زخماً شديد العنف يحرك مجاديف النواعير، المبتلة ابداً المضطربة السعف، الخافقة، المترنحة، السكرى.

بدا اصدقاؤنا المنفيون سعداء بنا. لقد اكتشفوا ان لهم رفاقاً، حتى في هذه المدينة النائية، في قريتنا القصية، أميرة الفرات المهجورة . ملكة المدن المعدمة المنسية في أسفار التاريخ الموغل في القدم.

اصدقاؤنا المنفيون الثلاثة، كانوا: خلوق امين زكي (سكرتير أول تنظيم طلابي في في العراق جرى انتخاب قيادته في مؤتمر السباع بعد وثبة كانون ١٩٤٨ الملهمة، باسم اتحاد الطلبة العام والاخران هما: محمد صالح الحيدري، ومحمد رسول الحيدري، من التنظيم المحلي للحزب.

خبرات جديدة

امضينا الوقت الاكبر من هزيع الليل الأخير، نصغي الى تجارب اصدقائنا في كيفية اعتقالهم، التحقيق معهم، اساليب رجال التحقيقات معهم. أساليب رجال التحقيقات الجنائية (الأمن العامة فيما بعد).

محاكمتهم، حياتهم في السجن، لقد كنت مشوقاً الى اختزان كل شيئ في ذاكرتي النهمة وبسرعة، غير ان اصدقاءنا، وهم يتلمسون حماسي الفتي، اقنعوني بان الأيام طويلة امامنا.. امام فضولي. وعندما لاحظنا ان الوقت قد حاصرنا، افترقنا، بعد ان وضعنا بشكل طيب طريقة اتصالنا ووعدناهم بان نحاول توفير ما يحتاجون اليه، كما ابدوا استعدادهم لمدنا بما لديهم من كتب، لانعرف كيف وفروها لانفسهم.

وفي الأيام التالية، كانت امامنا مهمة ان نخرق الطوق المفروض عليهم، وان نهيئ ظروفاً ملائمة تمنحهم فرصة الاختلاط بحرية وبشكل تلقائي، مع اهالي البلدة، وقد جاءت هذه الفرصة بشكل طبيعي:

كان احدهم خلوق امين زكي، مصاباً بالربو. وكان يتعرض لنوبات مؤلمة يتعسر عليه فيها التنفس، الى حد الاختناق، وكان من الضروري، توفير علاج مستمر لحالته تلك، ولما كانت المؤسسة الصحية الوحيدة في البلدة والتي نطلق عليها جوازاً اسم مستشفى، فقيرة بكل شيء، سواء بالكادر الطبي أو الأدوية، فقد كان أمامه فرصة واحدة، هي الحصول على الدواء من العاصمة، أو من مركز اللواء في الأقل.

لقد ظل الرجل الذي كان ذات يوم احد الابطال المرموقين في الحركة الرياضية، يعاني قسوة مرضه، دون ان يستطيع له دفعاً، وعندما حاول لفت نظر دائرة الشرطة وهي الجهة المسؤولة عن المبعدين، وجد معاون القضاء، فرصته لتأكيد سلطة مضحكة بائسة، بتجاهل طلب احالة موضوع مرضه الى المؤسسة الصحية في مركز اللواء (الرمادي) .

خلوق زكي ورشدي.. والقائممقام

ومن الصدف ان طبيب القضاء الذي كان الدكتور عبد الحكيم شريف، شقيق السيد عزيز شريف رئيس حزب الشعب المنحل، لم يستطع عمل شيء لمساعدة المريض بشكل جدي، لان تهمة الشيوعية كانت بضاعة رائجة يتداولها رجال السلطة و "ازلامهم" وكان وضع الدكتور شريف محرجاً بين واجبه الانساني ووضعه الخاص في البلدة، باعتباره أخا للزعيم الشيوعي الخطر في نظر الآخرين.

هنا اتفقنا على ان يوجه خلوق امين زكي طلباً رسمياً بواسطة قائممقام المركز الى كل من متصرف ورئيس صحة اللواء، على ان امهد انا لهذا الطلب بمفاتحة قائممقام القضاء.

كان القائممقام هو السيد عبد الرحمن العطار، وقد اخذنا معلومات طيبة عن شخصيته، باعتباره عنصراً ديمقراطياً وتقدمياً، وقد ساعدنا هذا، اضافة الى علاقته الطيبة المتينة، التي ترسخت بينه وبين والدي، وتبادل الزيارات بين عائلتينا، وما عرفه عن ميولي الثورية (لقد ساعدت وشايات معاون الشرطة ضدي امام القائممقام، باعتباري طالباً مشاغباً ذا مبادئ "هدامة!" على ايجاد نوع من الرعاية والمودة في نفس القائممقام أزائي).

وجاءت الفرصة سانحة، عندما جاء بعض موظفي القضاء، الى دارنا، وعندما لاحظت غياب معاون الشرطة بادرت القائممقام بعرض الوضع الصحي للمبعد السياسي الذي يعاني ما يعاني من مرض الربو الثقيل.

واتذكر ان حاكم البلدة الذي عرفت فيما بعد انه توفي شاباً. كان يصغي الى الطريقة التي عرضت بها القضية، باهتمام وتأثر. كان رجلاً طيباً من هذا الوطن، سره ان يصغي الى اندفاع فتى من اهالي تلك البلدة الريفية الحبيبة في التعبير عن الحقوق الأساسية لكل المواطنين وفي الأوليات منها، حق الرعاية والضمان الصحيين.

وشعرت بالغبطة البالغة وانا اتلقى دعم الحاكم لطلبي، ودعم جميع الحاضرين، ضيوف ابي، وثم وانا اتلقى الوعد القاطع من رئيس الوحدة الادارية، القائممقام بتبني ودعم أي طلب يتقدم به المبعدون السياسيون ضمن حدود القوانين المرعية، بل ان الأستاذ العطار، مضى الى اعطاء وعد بتيسير حياتهم في منفاهم، بكل ما يقدر عليه، وضمن حدود صلاحياته، وطلب الي ان ابلغهم ذلك.

كان هذا أكثر مما اتوقع، أكثر مما نتوقع بكثير! وفي اليوم التالي، وبعد ان اخبرنا أصدقاءنا المبعدين بالامر، استقر رأيهم على القيام بزيارة ودية للقائممقام، وعرض ما لديهم من مشكلات كان في مقدمتها أوضاعهم الصحية.

لقد تركت سنوات السجن اثارها البغيضة فيهم، وقد علمت فيما بعد، ان شتى الأمراض، تضافرت مع معاناة السجن وقسوته والتي هي نتيجة حتمية له، على تعرض السجناء لامراض خطرة كان في مقدمتها اصابات بالتدرن الرئوي.

ثمة مصادفة أخرى، اسهمت في خرق الطوق النفسي والاجتماعي الذي عاش داخله اصدقاؤنا المنفيون في ايامهم الأولى.

كانت محلتنا بحكم موقعها الجغرافي والاعتباري مركزاً للمدينة. فهي اولاً تتوسط القرية المسرفة في امتدادها الطولي على الفرات، وهي ثانياً، مركز القرية الاداري الذي تتجمع فيه دوائر ومؤسسات الحكومة، ولذا فقط كان طبيعياً ان تكون مقاهيها الصغيرة بؤرة تجمع لسكنة المدينة- القرية. وقد كانت هذه المقاهي تمتلئ صباح مساء بالزبائن القادمين من المحلات الاخرى، وخصوصاً في الفترة التي نتحدث عنها، شهور العطلة الصيفية الطويلة، الممتعة. وكان من الطبيعي ان يكون اصدقاؤنا المنفيون الغرباء، موضع فضول شديد للجميع.

واذا كان ابناء محلتنا، قد الفوا- بعض الشيء- وجودهم بيننا، فان سكنة المحلات الاخرى، تابعوا الانسياق وراء الرغبة بمعرفة المزيد عن اصدقائنا.

وذات مساء، كان مقهى توفيق مزدحماً كالعادة في مثل ذلك الوقت، طلب احد المبعدين تحويل مؤشر الراديو الى محطة ما.. لا اتذكر، للاصغاء الى نشرة الاخبار، فجأة نهض احد الجالسين منفعلاً، صاخباً، واقفل المذياع، محتجاً بانه لايسمح للغرباء، بفرض ما يريدون وانهم -المنفيين- شيوعيون وخطرون!

وسادت فترة صمت، لاذ خلالها المنفيون الثلاثة بالسكون، بعد ان اشار عليهم بعض الجالسين برفق ومودة، الى اجتناب الاستجابة لهذا الاستفزاز.

اذكر الحادثة، لان بطلها كان الطالب سعدون غيدان، وهو احد سكنة محلة الكحلي، في عنة كما انه واحد من أكثر الطلبة دماثة خلق وبساطة، واحد الذين يتميزون بروح الفكاهة والمرح واللامبالاة بين فتيان المدينة.

واذ لاحظت ان هذه الحادثة الصغيرة العابرة، قد اشاعت نوعاً من التعاطف الجماعي مع اصدقائنا المنفيين، ووجهت باستنكار واضح لتصرف ابن بلدتنا، فقد نهضت مع حسين وآخرين الى حيث كان يجلس سعدون.

الغرباء لا يأتلف مع السلوك العام لنا نحن ابناء القرية الطيبة فضلاً عن ان وضع هؤلاء الغرباء هو وضع خاص، يجب ان يحظى باحترامنا العميق لهم لانهم رجال شجعان ووطنيون يواجهون شراسة القمع والارهاب.

واننا اذا عاملناهم بهذه القسوة والخشونة والحذر، فنحن اذن، لا نختلف عن الذين القوا بهم في ظلمات السجن وفي شراك النفي والابعاد "اننا.. يا سعدون، دون ان نشعر، نغدو قوة تنفيذية في ايدي الحكام الخونة". ظل صاحبنا مطرقاً وجهه الاسمر الوسيم، كان مليئاً بشعور من الاسف والندم سأل فجأة:

-هل استطيع ان اوجه اليهم دعوة لتناول الغذاء في بيتنا؟

آه، ايتها النفوس القروية، الناضحة بالطيبة والبساطة والانفتاح حين تجد نافذة تطل منها على العالم الانساني الواسع المضيء.

اجاب حسين:

-عليك ان تعتذر لهم اولاً، سعدون.

- ولكن.. كيف؟

- المسألة بسيطة الا تعرف كيف تعتذر؟

لحظة توتر وارتباك، مليئة بالحيرة. امسك حسين ضاحكاً:

- هيا.. انا معك، يا ضابط المستقبل.

كان سعدون قد قدم طلب انتساب الى الكلية العسكرية ببغداد.

اختراق الحواجز

ببساطة، ببساطة متناهية نهض سعدون وحسين وانا. اعتذر سعدون من اصدقائنا المنفيين جلسنا معهم ضحكنا معاً وجه اليهم دعوة للغذاء اعترض محمد امين الحيدري بحذر.

- ولكن.. سيد سعدون لا نستطيع ان نلبي دعوتك الكريمة للاسف.

- لماذا؟.. هل ما تزالون غاضبين؟

- لا ... ابداً بشري ابداً انت انسان طيب ولكن..

قال خلوق:

-.. اننا نخاف عليك. نحن مراقبون.

ضحك سعدون.. ضحك بجذل حقيقي.

-تخافون علي..؟ ها.. ابداً غداً، انتم مدعوون غداً ساجيء لمرافقتكم الى بيتي.. ها؟ انعل ابو الحكومة ها . بتلك العفوية، ببساطة رائعة بدأ اصدقاؤنا اختراق الحواجز. علامة مضيئة في طريق حياتهم ببلدتنا، اما نحن فقد غمرنا السرور والترقب. ان القوانين المكتوبة لم تستطع مواصلة مفعولها القسري، الجامد امام قوانين الحياة والطبيعة، التي تحكم العلاقات البشرية، التلقائية البسيطة، كما ان شرائع الردع والعقاب التي تحاول الوقوف بوجه انسانية ودفق التعامل بين البشر سرعان ما تتهاوى، وتعود الى حجمها الطبيعي، سطوراً سوداء، غير قابلة للترجمة، الى لغة الحياة الاعتيادية المألوفة، الآسرة النابضة بالحيوية.

المخطوطة

كانت شهور ذلك الصيف البعيد من عام ١٩٥١ فترة لا تمحى من الذاكرة فأي مزيج غريب ذاك الذي عشته بين اللعب الطفولي المرح المخبول، وبين التكيف للمشاركة في تحمل مسؤولية جادة! موزعاً، عشت، بين الصباحات الصيفية الجميلة، في المقهى او على ضفاف النهر، بين اشجار التين، واعذاق التمر أتلقف كل ما يأتي به النهار الجديد: فرح الطفولة التي اودعها دون اسف، وآسفاه، وعتبات الشباب التي تدرج عليها خطاي بجذل وانتظار.

وفي ذلك الصيف ايضاً كنت احمل مخطوطة شعر في طريقي الى العاصمة، أحلم بعالم جديد من الشهرة الصبيانية.

طـبـيـب مـحـــرج ومـــريـــض شـيـــوعـي

فـلـســفـــة الـقـمـع وفـلـــســفـــة الإدارة الـــطـبـيـــة

شـبـــاب عـــانـــة يـتـصـلـــون بـــالـمـنـفـيـين الـســيـــاسـيـين